التطرّف و الغلـــوّ

الداعية السعودي

الشيخ الدكتور محسن العواجـــــي

بسم الله الرحمن الرحيم

التطرف والغلو

الحمد لله الذي كتب على نفسه الرحمة، والصلاة السلام على نبي الرحمة الذي بعثه الله رحمة للعالمين وبعد:

الاسلام هو الوسطية الربانية، والوسطية هي دين الله الذي ارتضاه لبني البشر (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) وبهذا استحقت أمة الإسلام هذه الخيرية بشهادة الله (كنتم خير أمة أخرجت للناس) لتكون شاهدةً على من سواها، والغلو والتطرف مناقضان للوسطية وهما جنوح عن المنهج القويم وانحراف عن الصراط المستقيم، علما بأن التطرف الفكري ليس محصوراً في دينٍ معينٍ ولا فكرٍ محدد ففي كل أمة يوجد متطرفون وغلاة، ويقاس مدى فعالية دعاة الوسطية في كل مجتمع بقدرتهم على نشر فكر الوسط والاعتدال والتسامح عى حساب مساحة التطرف والغلو، ومن غير الانصاف التركيز على التطرف الاسلامي وحده، دون التطرق لتطرف الآخرين، وكأنه الوحيد الذي هو ذاتي له جذور ترجع الى النص الثابت من الاسلام.

...سيكون الحديث منصباً على التطرف الاسلامي كونه يعنينا مباشرة في هذه المرحلة الحساسة علما بأننا لانستطيع تجاهل هذا الكم الهائل من الاستفزازات المتطرفة التي توجه للمسلمين منذ حقبة الاستعمار وحتى هذه اللحظة التي تتجلى فيه أبشع ممارسات التطرف الصهيوني على ارضنا المحتلة في فلسطين السليبة، كجزءٍ

من جملة استفزازاتٍ على المستويين الدولي والأقليمي قد تكون من أهم أسباب نشوء التطرف الاسلامي المتفاقم في بعض المناطق ودافعا لإيصاله إلى حد العنف الدموي الذي ترفضه جميع الشرائع والأديان.
لكن هذا لايعني بحال ٍ تبرير العنف ولا التساهل في محاصرته واسئصاله، لآنه من الأمانة أن نعترف بأن التطرف الديني والغلو في فهم النصوص خطرٌ يهدّد مجتمعاتنا من الداخل ويطالنا ضررهما أكثر من غيرنا، لقد ظهرت تيارات دينية متشددة وجماعات أصولية تنتقي من نصوص الشرع ما يوافق هواها ثم تنطلق منفردة دون اعتبار لآراء الغالبية العظمى من علماء الأمة الراسخين في العلم، وأصبح آحاد المتطرفين يفسرون الدين وفق مفهومهم الخاص ويحملون الناس عليه ، طوعاً أو كرهاً ويعتبرون مخالفهم عدواً لهم قد يستحلون دمه، ومن الانصاف أيضا أن نقول بأن خطورة التطرف الديني في بلادنا ناجمة عن كون الاسلام مظلوماً من قبل المجتمع العالمي، فهو الحاضر قدراً في كل شأن من شئون الحياة، وبنفس الوقت المغيب قسراً عن الساحة، إما بالتضييق على رموزه أو مطاردة علمائه، نتيجة طبيعية ان يجد المتطرفون مناخا مناسبا لأفكارهم عندما مورس التضييق على الطرح الاسلامي المعتدل الذي يطالب بالحقوق بوسائل سلمية مشروعة، بينما نجد مجتمعات غيرإسلامية كانت أحكم في تعاملها فقللت من حدة التطرف عندما استوعبت النزعات الأصولية وأدخلتها ضمن اللعبة السياسية العامة رغم التحفظ عليها وعلى أفكارها،

فسمحت مثلا لأحزاب دينية بممارسة دورها في المنافسة الانتخابية كالحزب الديمقراطي المسيحي في ألمانيا والأحزاب الدينية المتشددة في (إسرائيل) بينما نجد حرمان الأحزاب من ذوي التوجهات الاسلامية من أي مشاركة في جميع بلاد المسلمين إلا القليل جدا، بل ألغيت انتخابات بأكملها وترتب على ذلك التضحية بمئات الآلاف من المواطنين لمجرد ان أن الإسلاميين كسبوها، وهذا بلا شك مما ينبت اليأس لدى المتدين و يدفع الكثير من المتحمسين منهم إلى التحول نحو التطرف ومن ثم العنف.

التطرف والغلو خطر ليس على بلاد المسلمين فحسب بل أصبح العالم بأسره يشتكي من تداعياته ويدفع ثمن تأجيل علاجه، و لعل من أهم خطوات علاجه معرفة الأسباب المؤدية إليه والتي في مقدمتها ممارسة الاستبداد والظلم والحرمان ضد الشعوب، كما أن التطرف عادة ما يولد تطرفاً مضاداً ، فالدولة التي تكفر معارضيها المتطرفين يجب ألا تستكثر منهم تكفيرهم لها من منطلق رد الفعل المساوي له، والعلاج الصحيح يتطلب مواجهة ً علمية واعية تأخذ بالحسبان وحي السماء وليس أهواء البشر و أنه لن يرضي البشر سوى كلام رب البشر، وأن الدعوة للوسطية لن تتأتى من مجرد رفع الشعار وحده دون مصداقيةٍ عمليةٍ تقنع المتخندقين في قلاع العنف والتطرف بالنزول الى ساحة فكر الوسط الفسيحة ليعيشوا ويتعايشوا مع العالم بسلام، ولهذا نجد النبي صلى الله عليه وسلم يحرص في كل لحظة يتسرب فيها فكر متطرف على معالجته قبل استفحاله، جاءه ثلاثة يريدون أن يزايدوا عليه

في عباداتهم، فسألوا عن كيفية عبادته ثم تقالوها فقررأحدهم أن يصوم ولا يفطر وقرر الآخر أن يقوم ولا ينام وقرر الثالث ألا يتزوج النساء: فلما علم بهم اتخذ قرارا فوريا بسحق هذه النزعة المغالية، وقذف بالوسطية غلوهم الباطل فإذا هو زاهق وقال لهم(أما وأني اصوم وأفطر واقوم وأنام وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني) ولما نصح عبد الله بن عمر بصيام يوم وإفطار يوم قال عبد الله: أطيق أكثر من ذلك ، فرد عليه (لاأفضل من ذلك) ولما كبر عبد الله بن عمر ندم أنه لم يأخذ بنصيحة الرسول الرحيم عندما اقترح عليه أن يخفف عن نفسه عبء الصيام الكثير، بل حتى عمر بن الخطاب نفسه كان بين المرة والأخرى يخضع لترويض النبي الوسطي له كلما ساورته نزعة القسوة على المخالف، إذ لم يأذن له ولا مرة واحدة بضرب عنق من كان يستأذنه مرارا بقتلهم، فتخرج عمر الفاروق من هذه المدرسة الوسطية النبوية ضارباً أروع الأمثلة بالحكم الراشدي العادل فيما بعد.

هكذا تكون الوسطية متجسدة في قوله وفعله وجميع سيرته صلى الله عليه وسلم، فهي قوة من غير عنف ولا تعدي، ورحمة من غير ضعف ولا هوان، وعدل واحترام، و تمسك بالثوابت واجتهاد مع المتغيرات، جهاد مشروع لمن يقاتلون المسلمين ضمن قواعد وضوابط معلومة، ورحمة وتسامح وحسن تعامل مع غير المسلمين، الكل له حق مكفول في شريعتنا، ليس في ديننا قتل الأبرياء ولا تدمير الممتلكات ولا استهداف الأحبار ولا القساوسة ولا قتل النساء والأطفال ولا المعاهد والأسير، تعامل النبي صلى

الله عليه وسلم في المدينة مع مجتمع متعدد الديانات والأعراق، فعامل كلاً بحسب مكانته مع ضمان حقه الآدمي الذي كرمه الله به عن غيره من المخلوقات، استعان بمشرك يدله على طريق الهجرة للمدينة، ومات ودرعه مرهونة ليهودي، ومات و اليهود في خيبر والنصارى في نجران واليمن يعيشون مع المسلمين وفق عهدٍ بيَّنه وصدق الله القائل (ومأأرسلناك إلا رحمة للعالمين) و بقوا من بعده حيث كانوا في عهد أبي بكر وشطراً من حياة عمر رضي الله عنهما، وهما الخليفتان اللذان أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بهما من بعده، فأين هذا من فكر الغلاة المتطرفين اليوم الذين يفهمون النصوص خلاف فهم الصحابة لها؟ وجلبوا إلى مجتمعاتهم الدمار والقتل وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا..

إن وجود العنف الناجم عن التطرف الفكري في فهم نصوص الدين والمؤدي إلى استباحة الحرمات وتدمير الممتلكات باسم الدين، ليوجب على الوسطيين مزيدا من بذل الجهد لاحتوائهم بالطرق المشروعة التي لا يتولد عنها تطرفٌ مضاعفٌ ، ومن هنا تتضح أهمية عقد مثل هذا المؤتمر في هذه المرحلة فنحن بحاجةٍ الى الوسطية واقعاً عملياً في ثلاث مستويات رئيسية هي:

1- الوسطية في المعتقد: فالاسلام دين الوسط بين الجفاة والغلاة، هو الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من غير المغضوب عليهم ولا الضالين، دين لله كله لا كهنوت فيه ولا رهبانية، دين العدل والمساواة والاحترام المتبادل بين البشر، دين يجعل من أهل القبلة خاصة إخوة

في الله لهم حقوق المسلم على المسلم ، كما انه يفرق بين أهل الكتاب والمشركين في المعاملات، فلأهل الكتاب من يهودٍ ونصارى اعتبارٌ خاصٌ وصل إلى أن نص القرآن على أن الذين قالوا إنا نصارى هم من أقرب الناس مودةً للذين آمنوا، وبنفس الوقت لم يغفل الكرامة الآدمية لأي بني آدم بغض النظر عن معتقده وعرقه ولونه.

2- الوسطية في العبادة: وهذا يعني التجرد لله والابتعاد عن الغلو حتلى لا يتمادى الناس بالمزايدات والتنطع، والأولى الالتزام بقواعد التيسير التي أوصى بها الرسول عليه السلام بقوله (بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا) وقوله (الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه) واعتقاد أن الله غني عن طاعة المطيع وأنه لا تضره معصية العاصي، ولربَّ مسلمٍ على معصية يذرف دموع الندم عليها أحب إلى الله من عابد يرى نفسه وليا لله يمن على الله في إسلامه، ولذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل عن الإطالة في الإمامة وقال له مستنكرا (أفتان أنت يا معاذ) وأكد على أفضلية رخص السفر من قصر للصلاة وإفطارالصيام، وكان جوابه لكل من سأل عن مناسك الحج (إفعل ولا حرج) بينما قال (هلك المتنطعون: ثلاثا).

3-الوسطية في المعاملات: وبما اننا نعيش أزمة تعايش مع الآخرين وأن الدين المعاملة فإن أهم ما نحتاجه اليوم هو هذا النوع من الوسطية لكي يسود السلام بيننا، وتتحدد علاقتنا بالآخر على اسسٍ عادلة، سواء كان مخالفاً لمسألةٍ فرعيةٍ من داخل مجتمعنا الاسلامي أو من خلال

علاقتنا بغير المسلمين، وهذا النوع من الوسطية ضروريٌ جداً وتفعيله يتطلب منا فقهاً شاملاً لجميع النصوص بالجملة دون أخذ واحدٍ منها في معزلٍ عن غيره وذلك حتى نتمكن من حمل هذه الأمانه للغير وإعطاء صورةٍ مشرقةٍ عن ديننا العظيم الذي ارتضاه الله للعالمين الى قيام الساعة.

الاختلاف في فهم النصوص رحمة من الله لتنوع المجتمعات واختلاف طبائعها، وهو من أبجديات الوسطية المنشودة والله تعالى خلقنا مختلفين ومتفاوتين في أفهامنا وأفكارنا ولو شاء لجعلنا أمة واحدة ، وهو تعالى أعلم بحالنا أن شرع لنا من الدين ما وصّى به نوحاً ومن بعده (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) فمن الوسطية ان نعتبر هذه الاختلافات تنوعاٍ لاتضاداً ولو شاء الله لأنزل النصوص محكّمةً لا تقبل سوى معنىً واحداً، ومن الغلوّ أن يحاول بعض أصحاب الرؤى الضيقة فرض فهمهم لها و إرادتهم البشرية على مخالفيهم، ليطبقوا في حق المخالف أقصى درجات الإقصاء والتهميش ولربما لجأوا إلى التصفية المحرمة خلاف حكمة الله التي ضمنت لكل إنسانٍ كرامته وقيمته الاجتماعية واحترام عقليته وفهمه للنص القابل لأكثر من معنى وتأويل، ولهذا جعل الشارع الحق ميزاناً للرجال ولم يجعلهم ميزاناً له، وجعل الحكمة أفضل وسيلة للدعوة وتبليغ الرسالة وسماها (ضالة المؤمن) واعتبرها مؤشر علم ونضج الأمة للتعامل مع غير المسلمين أيضاً (أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) وهاهو

القران الكريم يخبرنا بأن الله أرسل موسى وهارون لفرعون ليقولا له(قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى).
من حقنا كدعاة وسطية أن نتساءل: أين هذا الخطاب القراني الوسطي الراقي مع جميع الأطراف عما نمارسه فيما بيننا؟ هذا القران يحثنا على التعامل الراقي مع غير المسلمين ونحن نتمنى تعاملا معقولا بين المسلمين أنفسهم يستوعب الخلاف ولا يؤدي للقتل!! أليس ربنا واحد، وديننا واحد، ورسولنا واحد، وقبلتنا واحدة وهدفنا واحد ومصيرنا واحد؟ فمال هؤلاء المتطرفين والغلاة لا يكادون يفقهون سبيلا!! نحن نحمل رسالة العالم كله (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا) وهذا يعني ضرورة نبذ الخلافات و جمع الناس على الاسلام العام كمنطلقٍ رئيس، بعيداً عن كل مذهبيةٍ ضيقةٍ أو طائفيةٍ متوجسة ٍأو إقليميةٍ متقلبةٍ تشرذم الأمة وتوهن قواها، وهذا الهدف يتحقق بالاعتصام الصادق بحبل الله والالتزام بدينه الوسط وفق منهج نبي الوسط صلى الله عليه وسلم ومن اقتدى به وسار على نهجه الى يوم الدين.

من الوسطية ألا نخاف على دينٍ تكفل الله بحفظه بقدر ما نخاف على انفسنا إما من الغلوّ فيه أو الجفاء عنه، وكفي بالوسطية شرفاً أن كانت منهج الانبياء وشعار الأسوياء جميعا قال تعالى (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) من الوسطية ايضاً أن ننزل الناس منازلهم، وأن نؤمن بأنه لا قداسة لأحد بيننا وأن العصمة للأنبياء والمرسلين فقط، وألا تدفعنا محبتنا لعلمائنا المعاصرين مهما بلغ قدرهم وعلمهم أن نقبل منهم ما

يخالف نصوص ديننا الثابتة عندنا، فكل يؤخذ من كلامه ويرد، وللناس أن يحترموا علماءهم كيفما شاؤوا فهذا امر محمود، لكن عليهم أن يحترموا علماء آخرين لآخرين أيضا حالت بينهم وبينهم الجغرافيا أو الحدود السياسية، التمسك الحقيقي بالنص يعني أننا إذا سمعنا قال الله أنصتنا وقلنا سمعنا واطعنا وإذا سمعنا ما ثبت عن رسولنا قلنا سمعنا وأطعنا، ومن سواهما فلنا حق المناقشة والمناظرة والقبول والرفض لآرائهم وكما قال الإمام أبو حنيفة (هم رجال ونحن رجال) وهذا ما انتبه إليه مبكرا حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنه عندما لاحظ أخذ الناس أقوال من يرتاحون إليهم دون عرضها على كلام الله ورسوله فقال محذراً (يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول لكم قال رسول الله وتقولون قال أبو بكر وعمر) فإذا كان هذا غضبه والناس يسمعون ويقتدون بأبي بكر وعمر على جلالة قدرهما وسابقتهما في الاسلام، فكيف بمن يقتدون بمعاصرين مقصرين لايبلغون مدّ الصحابة ولا نصيفهم حتى لو انفقوا مثل أحدٍ ذهباً مهما بلغ علمهم وذاع صيتهم. الغلو في العلماء واعتبارهم المصدر الوحيد للحق والحقيقة وعدم تحمل أي رأيٍ يخالف رأيهم من معوقات الفكر الوسطي، لأنها قداسة ما أنزل الله بها من سلطان داخلة ضمن التحذير الرباني في قوله تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) بينما نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم قبل الحق من الجميع حتى قبله من شيطان أبي هريرة ، عندما أخبره بفضل آية الكرسي، وجاء الهدهد إلى النبي سليمان عليه السلام قائلا

له (أحطت بما لم تحط به) فقبل منه الخبر، ولنا في أنبياء الله أسوةً حسنةً لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً.